

يسرائيل بعلياه: حزب المهاجرين اليهود الروس

خالد عايد

عشية الانتخابات العامة الإسرائيلية الأخيرة، أعلن ناتان شارانسكي تحويل حركة يسرائيل بعلياه التي يتزعمها إلى حزب يعتزم خوض الانتخابات الوشيكة، ممثلاً المهاجرين اليهود الروس. وكان هؤلاء المهاجرون قاموا بدور رئيسي في إيصال حزب العمل إلى سدة الحكم في انتخابات الكنيست لسنة ١٩٩٢. كما أن استطلاعات الرأي قبيل الانتخابات الأخيرة كانت تعطي حزب المهاجرين الجديد ما لا يزيد عن ثلاثة مقاعد في الكنيست الرابع عشر (وأكثر من ذلك، فإن يوسي بيلين، مثلاً، كان قد أعرب عن شكه في أن تجتاز أحزاب المهاجرين نسبة الحسم). لكن المفاجأة المتمثلة في حصول الحزب على سبعة مقاعد في الكنيست كانت إشارة واضحة إلى صعود القوة الانتخابية للمهاجرين الروس، وربما إلى ما يتجاوز ذلك: تبلور مكانة هؤلاء المهاجرين في الحقلين السياسي والثقافي.

* * *

المهاجرون الروس: خلفية

يبلغ عدد اليهود في إسرائيل من منشأ روسي نحو ٨٠٠ ألف، يملك حق الاقتراع من بينهم ما يتراوح بين ٥٥٠ ألفاً و٦٠٠ ألف (منهم نحو ٤٥٠ ألفاً من هجرة أعوام التسعينات، والعدد الباقي ممن هاجروا في السبعينات). وتقدر القوة الانتخابية لهؤلاء المهاجرين بما لا يقل عن ١٢ مقعداً^(١) وهذه القوة المستجدة تتضح على نحو بارز إذا أخذنا في الاعتبار أن عدد المهاجرين الجدد الذين شاركوا في الانتخابات الأخيرة أول مرة بلغ ٢٤٠ ألفاً من مجموع ٦٤٠ ألف مقترح جديد،^(٢) أي ما نسبته ٣٧٪ تقريباً.

يبدو مغزى هذه الأرقام للعيان في ضوء حقائق وضعهم المعيشي في إطار الحياة الاجتماعية الإسرائيلية العامة. فهناك، من جهة، الصعوبات المعروفة التي تواجه عملية استيعابهم، ولا سيما في الأعوام القليلة التي تلي وصولهم. كما أنهم، من جهة ثانية، يعيشون ضمن ما يشبه الجزيرة المعزولة عن محيطهم الإسرائيلي، الأمر الذي

(١) إيلانا باوم، "مهاجرو رابطة الدول المستقلة: القوة السياسية"، "يديعوت أحرونوت"، ملحق عيد الاستقلال، ١٩٩٦/٤/٢٣، ص ٥.

(٢) "1996 Elections: Statistics" (received via E-mail).

يتجسد في "مئات آلاف السكان من دون أي اتصال تقريباً بالعالم الذي يعيشون فيه. لدينة محطة إذاعة خاصة بنا، ومحطة تلفزة وصحافة مكتوبة. وثمة أحزاب وأندية ومدارس [خاصة بالمهاجرين الروس]. ونذهب إلى حفلات موسيقية وعروض ينظمها فنانونا. إننا نفكر بالروسية ونتواصل فيما بيننا."^(٣) وفي المناسبة، نذكر أن عدد الصحف الصادرة في إسرائيل باللغة الروسية يبلغ ٣٨ صحيفة!^(٤) ومن جهة ثالثة، يدرك المهاجرون الروس أهمية قوتهم العددية و"يشعرون اليوم بأنهم يبدأون حرب الاستقلال الخاصة بهم داخل دولة إسرائيل"، ويعتقدون أن الخطوة الأولى على طريق انتصارهم هي الحصول على تمثيل لهم في الكنيست.^(٥)

ويمكن معرفة طرق تفكير المهاجرين الروس الجدد بالاستناد إلى نتائج استطلاع للرأي أجراه معهد "داحف" في صفوفهم في نيسان/أبريل الماضي. فتبعاً لهذه النتائج، جاءت على النحو التالي الإجابة عن سؤال بشأن كيف يعرفون أنفسهم: مهاجر، ١٢٪؛ مهاجر جديد، ١٤٪؛ من رابطة الدول المستقلة، ٢٦٪؛ يهودي، ٣٢٪؛ إسرائيلي، ١٦٪ فقط. واعتبر ٥٩٪ منهم أن المجتمع الإسرائيلي يستوعب الهجرة إما بلامبالاة وإما بعدائية. ورداً على السؤال: "أي الأوصاف التالية لمهاجري روسيا أكثر بروزاً في وسائل الإعلام الإسرائيلية"، قال ٩٪ إنه وصف "دم جديد للمجتمع"، ١٥٪؛ "بروفسور كنّاس"، في مقابل ٢١٪ قالوا إن الوصف هو "عاهرات وسماسرة"، و٣٧٪ قالوا إنه "المافيا الروسية". وأفاد استطلاع الرأي أن ٢٦٪ من المهاجرين الروس يفكرون، قليلاً أو كثيراً، في الهجرة من إسرائيل، وأن لدى ١٪ منهم خططاً عملية للهجرة من إسرائيل.^(٦)

وقد استنتج أحد أساتذة علم الاجتماع في الجامعة العبرية،^(٧) في سياق تحليله الانتخابات الأخيرة، وجود ست ثقافات فرعية تمكنت من تعزيز أطرها والتأسيس، ومن بينها الثقافة الفرعية للمهاجرين من روسيا. وفي رأيه، فإن جُلّ قوة هذه الثقافة ينبع من حجمها الكبير، ومن المؤهلات البشرية التي في حيازتها، إلخ. كما أنها تنطوي على طاقة "حرجة" للاعتماد على الذات، وهي مقطوعة الصلة بالثقافة الإسرائيلية ومرتبطة بثقافة "الوطن القديم". وتستغل قطاعات من المهاجرين الروس هذه الطاقة الكامنة وتنغلق داخل جيوب ثقافية واجتماعية خاصة بها.

(٣) انظر: ماكس لوريا، "مهاجرو رابطة الدول المستقلة: الهوية والغضب"، "يديعوت أحرونوت"، ملحق عيد الاستقلال، ٢٣/٤/١٩٩٦، ص ٦ - ٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥.

(٧) باروخ كيمرلينغ، "حرب ثقافات"، "هآرتس"، ٧/٦/١٩٩٦.

من حركة إلى حزب

منذ ما قبل انتخابات سنة ١٩٩٢، وخلال الأعوام الثلاثة التي تلتها، ظل رئيس المنبر الصهيوني ناتان شارانسكي يعارض بشدة تأليف حزب للمهاجرين. وكان يبرر هذا الرفض بقوله: "يجب إبقاء الهجرة شأنًا مشتركاً يوحد الشعب ولا يقسمه. ويمكن القول إننا نجحنا في بناء جسور جديدة. وليس لدينا إحساس بأن الجمهور يفكر في أن الهجرة ليست مشكلته. وهذا الوضع أفضل من أن يشعر الجمهور بأنه يوجد في الكنيسة شاس للروس." كما كان يقول في حينه: "إنني لا أبحث عن مقاعد. وطموحي أكبر من أن أكون وزيراً في الحكومة."^(٨)

لكن المنشق الروسي اليهودي الذائع الصيت أعلن في ١١ شباط/فبراير ١٩٩٦ تحويل حركته السياسية يسرائيل بعلياها إلى حزب يحمل الاسم نفسه، استعداداً لخوض الانتخابات. وإذا كان شارانسكي يرى "أهمية رمزية" في تاريخ تأسيس حزبه، إذ صادف الذكرى العاشرة لإطلاقه من أحد سجون موسكو، فإن هذا التاريخ ارتبط ارتباطاً أساسياً بما أعلنه رئيس الحكومة الإسرائيلية شمعون بيرس، في تلك الفترة، من تقديم لموعد انتخابات الكنيست الرابع عشر. وفي هذه المناسبة، عرض شارانسكي دوافع تأليف الحزب الجديد بقوله إن طرفي القوس السياسي (حزب العمل والليكود) دخلا في مواجهة بعد اغتيال رابين، فهؤلاء يطالبون بسلام فوري وأولئك بـ "أرض إسرائيل" فورية. أما "نحن، كحزب مهاجرين، فإننا نعتقد أنه يجب إبراز المسائل غير المختلف بشأنها، والتي يمكنها توحيد الشعب، مثل تحويل أرض إسرائيل إلى مجمع للدياسبورا (الشتات)، وتعزيز شؤون الاستيعاب والهجرة. وهذه شؤون لا تقل أهمية عن قضايا السلام والأمن."^(٩)

ولدى سؤال شارانسكي، في وقت لاحق، عن المتغيرات التي حدثت على تغيير رأيه في شأن إقامة حزب للمهاجرين، قال:

.... قررنا إقامة حزب عندما اتضح أن الفصل بين المهاجرين والمجتمع يشتد. فحتى الناجحون بين المهاجرين يشعرون بأنهم ينتمون إلى أقلية مشبوهة وغير موالية، والنظرة إليهم سلبية. إن المهاجرين من روسيا تركوا دولة كانوا يشعرون فيها دائماً بأنهم ليسوا جزءاً من المجتمع. جاؤوا إلى هنا معتقدين أن هذا هو البيت. وفجأة أخذوا يشعرون بأنهم عبء. يقال إنهم يجلبون الجريمة والدعارة، وعندما يديرون أعمالاً يكونون مرتبطين بالماфия....

(٨) انظر: نوريت ريغلر، "حقيبة الاستيعاب صغيرة عليه"، "دافار ريشون"، ١٧/٥/١٩٩٦.

(٩) "هآرتس"، ١٢/٢/١٩٩٦.

المعادون للسامية في روسيا كانوا على الأقل يحترمون اليهود؛ إذ كانوا يقولون إن اليهود أذكىاء. هنا تحول مهاجرو روسيا إلى طفيليات.^(١٠)

تناولنا أعلاه الأوضاع التي أحاطت بتأسيس حزب إسرائيل بعلياه. ومنتقل فيما يلي إلى تركيبة هذا الحزب وإلى برنامجه في الانتخابات الأخيرة.

كان قادة إسرائيل بعلياه قد أعلنوا، لدى تأسيس الحزب، أن عدد الأشخاص الذين سجلوا عضويتهم فيه بلغ آنذاك نحو ٣٠ ألفاً. وأفيد أن معظم هؤلاء يسكن في أسدود والقدس وحيفا ونتانيا وعسقلان وبئر السبع.^(١١) واعترف شارانسكي فيما بعد، قبل نحو أسبوعين من الانتخابات، بأنه حقاً لا يمكن القول إن آلاف مؤلفة من الإسرائيليين انضمت إلى الحزب، "لكن ثمة نشاط لنا من جميع شرائح الجمهور: متدينون وعلمانيون وإثيوبيون. فبسبب برنامجنا، ليس لأحد مشكلة في الانضمام إلينا."^(١٢)

على الرغم من ذلك كله، وعلى الرغم من إصرار شارانسكي على أن "حزبنا هو حزب إسرائيلي بكل معنى الكلمة، ويطالب بمعالجة المشكلات التي يعانيها إسرائيليون كثيرون"، فإن إسرائيل بعلياه هو، في المقام الأول، حزب المهاجرين، والروس منهم بالدرجة الأولى. وهذا ما تؤكد حقيقته أن قائمة المرشحين في انتخابات الكنيست الأخيرة كانت قائمة مهاجرين خالية من أي مهاجر يهودي إثيوبي، وكادت تقتصر على ممثلي الإنتلجنسيا الموسكوفية، وأن الدعاية الانتخابية غالباً ما كانت تتم باللغة الروسية.^(١٣)

كما أن اسم الحزب وبرنامجه (واتفاقه الائتلافي اللاحق مع الليكود) يعكسان تركيزه الخاص على قضايا المهاجرين. فالاسم إسرائيل بعلياه يعني "إسرائيل مع الهجرة" (كما أنه يعني "إسرائيل في صعود"). وبرنامج الحزب يضع "تجميع الشتات" اليهودي في رأس أولوياته، ويرى أن على "دولة إسرائيل أن تجتذب الـ عوليم [المهاجرين] من خلال نوعية حياتها والفرصة التي توفرها لتحقيق الذات." ويتضمن البرنامج فقرات خاصة بـ "استيعاب الهجرة" و"العلاقات بين إسرائيل والشتات"، إلى جانب الفقرات التي تتناول الاقتصاد، والإسكان والبناء، والسلام والأمن، والتعليم والثقافة، والمؤسسات الحكومية، وحقوق الإنسان والديمقراطية، والدولة والدين،

(١٠) من مقابلة معه، أجرتها ريغلر، مصدر سبق ذكره.

(١١) "هآرتس"، ١٢/٢/١٩٩٦.

(١٢) ريغلر، مصدر سبق ذكره.

(١٣) المصدر نفسه.

والبيئة. (١٤)

في مجال استيعاب الهجرة، دعا برنامج يسرائيل بعلياه إلى ما يلي: سنّ قانون لاستيعاب المهاجرين، يحدد حقوق المهاجر وواجباته؛ إبقاء قانون العودة على ما هو عليه؛ وضع خطة طويلة الأمد لاستيعاب المهاجرين؛ توسيع صلاحيات المجالس المحلية فيما يتعلق بإنفاق الأموال المخصصة للاستيعاب؛ منح المهاجرين فرصة أكبر لدراسة اللغة العبرية في معاهد تعليم هذه اللغة؛ استعمال ضمانات القروض التي قدمتها الولايات المتحدة في خدمة غرضها الأصلي المتمثل في استيعاب الهجرة.

أمّا في حقل "العلاقات بين إسرائيل والشتات"، فقد طالب برنامج الحزب بتنفيذ أي دعم إسرائيلي لأنشطة اليهود في الشتات بالتنسيق بين المنظمات اليهودية المحلية واليهودية الدولية والإسرائيلية، ومشاركة يهود الشتات في مشاريع تطوير دولة إسرائيل ومساهماتهم في صنع القرارات، وإعادة تنظيم الوكالة اليهودية بعيداً عن أي مصالح حزبية أو سياسية ضيقة، وغير ذلك من المطالب.

وتحتل الهجرة مكانة مرموقة حتى في الفقرة من برنامج الحزب المتعلقة بـ "السلام والأمن"، التي تبدأ بالنص التالي: "تؤمن إسرائيل بعلياه بأن استمرار الهجرة سيشكل عاملاً ديموغرافياً حاسماً في التخطيط الاستراتيجي الطويل الأمد للبلد." وحدد البرنامج عدداً من المبادئ التي يجب أن تستند "العملية السلمية" إليها، ومنها: "للشعب اليهودي حق في أرض إسرائيل غير قابل للتصرف فيه"؛^(١٥) "القدس الموحدة غير قابلة للتفاوض في شأنها، بصفتها عاصمة الدولة اليهودية"؛ الاعتراف بتأسيس حكم ذاتي فلسطيني ورفض قيام دولة فلسطينية. كما تحتل الهجرة مكانة مماثلة في فقرة "الدولة والدين"، إذ ورد أنه "من أجل ضمان استمرار عملية التجميع، ستسعى الحركة - بالتعاون مع الحاخامية والمؤسسات الدينية - من أجل إيجاد حلول للمشكلات الصعبة المتعلقة بزيجات غير اليهود وبدفنتهم." وكذلك الأمر بالنسبة إلى فقرة "الاقتصاد"، إذ دعا البرنامج إلى اقتصاد ليبرالي وقائم على التنافس، يؤدي في نهاية المطاف إلى اجتذاب يهود الدياسبورا.

(١٤) انظر:

Information Division, Israel Foreign Ministry, "Yisrael Ba-Aliya Platform: Executive Summary" (received via-E-mail).

(١٥) علّق شارانسكي على ذلك بقوله: "حتى إذا كان للشعب اليهودي حقوق في أرض إسرائيل الكاملة فهذا لا يعني أننا نريد السيطرة على أرض إسرائيل كلها. ربما نتنازل عن أجزاء منها، لكن ليعلموا أننا تنازلنا عن شيء هائل. وهذا يشكل فارقاً كبيراً من الزاويتين الأيديولوجية والشعورية." انظر: ريغلر، مصدر سبق ذكره.

الحزب والانتخابات الأخيرة

خاض حزب إسرائيل بعلياه انتخابات الكنيست الرابع عشر بصفته المنافس الرئيسي فيما يخص أصوات المهاجرين الروس. وقد دخلت السباق الانتخابي قائمة أخرى للمهاجرين تحمل اسم "الوحدة من أجل الهجرة" برئاسة عضو الكنيست السابق عن الليكود أفرايم غور، بعد أن فشل الجانبان في التوصل إلى اتفاق على قائمة موحدة. وفي حين لم تفلح قائمة غور في اجتياز نسبة الحسم (إذ حصلت على ٢٢.٧٣٦ صوتاً تمثل ٠.٧٪ من الأصوات فقط)، نالت قائمة إسرائيل بعلياه ١٧٤.٩٢٨ صوتاً (نحو ٥.٧٪ من مجموع الأصوات) أمّنت لها سبعة مقاعد في الكنيست.^(١٦) ويستدل من نتائج التصويت للقائمة في أوساط معينة، أنها لم تحز على أصوات من العرب، في حين حصلت على ٥.٨٪ و ٣.٩٪ من أصوات المستوطنين في الجولان والضفة الغربية، على التوالي.^(١٧)

وفيما يلي نبذة تعريف عن كل من أعضاء إسرائيل بعلياه في الكنيست الحالي:^(١٨)

● **ناتان شارانسكي:** رئيس الحزب ورئيس قائمته في الكنيست، وزير الصناعة والتجارة في الحكومة الحالية. عمره ٤٨ عاماً. ولد في أوكرانيا، درس الرياضيات وعلوم الحاسوب في معهد الفيزياء التكنولوجية في موسكو. كان من أبرز الناشطين في الاتحاد السوفياتي السابق من أجل هجرة اليهود إلى إسرائيل، وسُجن عشرة أعوام بسبب نشاطه الصهيوني. وبعد إطلاقه من السجن سنة ١٩٨٦، هاجر إلى فلسطين المحتلة.

● **ميخائيل نودلمان:** وزير الاستيعاب. عمره ٥٨ عاماً، يقيم بمستعمرة كريات شمونة، وهو عضو مجلس بلديتها منذ سنة ١٩٩٣. بروفور في الاقتصاد. هاجر من أوكرانيا سنة ١٩٩١. رئيس اللجنة الاقتصادية في الكنيست.

● **يولي إيدلشتاين:** عمره ٣٨ عاماً، يقيم بمستوطنة إيلون شُفوت في الضفة الغربية. سُجن ثلاثة أعوام في موسكو بسبب نشاطه الصهيوني، وهاجر سنة ١٩٨٧. خريج معهد إعداد المعلمين في موسكو، ويحمل شهادة من الجامعة العبرية. أسس مع شارانسكي المنبر الصهيوني ومن بعده إسرائيل بعلياه. وعمل مستشاراً لرئيس الليكود بنيامين نتنياهو.

● **يوري شتيرن:** عمره ٤٧ عاماً، يقيم بالقدس، ويحمل شهادة دكتوراه في الاقتصاد. كان يعمل في كلية الاقتصاد في جامعة موسكو، وهاجر سنة ١٩٨١. عمل ناطقاً باسم المنبر الصهيوني، وكان مستشاراً للجنة الهجرة والاستيعاب في الكنيست

(١٦) "هآرتس"، ١٩٩٦/٦/٢.

(١٧) "معاريف"، ١٩٩٦/٥/٣١.

(١٨) "هآرتس"، ١٩٩٦/٥/٣١؛ "يديعوت أحرونوت"، ١٩٩٦/٦/١٤.

في الفترة ١٩٩٠ - ١٩٩٢.

● **مارينا سولودكين:** هاجرت سنة ١٩٩١، وتقيم بعسقلان. تحمل شهادة ماجستير في علم الاجتماع. تعمل في الجامعة العبرية بالقدس في نطاق تخصصها: الصراع في الشرق الأوسط وسوسولوجيا الهجرة.

● **تسفي فاينبرغ (البروفسور):** هاجر من كندا سنة ١٩٩١. نشط طوال ٢٥ عاماً في الولايات المتحدة وكندا من أجل هجرة يهود الاتحاد السوفياتي السابق. عمل منسقاً لفريق السناتور روبرت كنيدي في معركة الانتخابات في كاليفورنيا سنة ١٩٦٨، ومستشاراً للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران في شؤون السياسة الأمريكية. وفي فرنسا، وضع كتباً عن معاداة السامية، وعقد ندوات دولية عديدة من أجل يهود الاتحاد السوفياتي السابق.

● **رومان برونغمان:** عمره ٤٢ عاماً، هاجر سنة ١٩٨٠، ويقيم حيفا. كان عضواً في حزب العمل في الأعوام الخمسة الأخيرة ومثله في مجلس بلدية حيفا. يحمل شهادة دكتوراه من الجامعة العبرية. شغل منصب رئيس التحرير في صحيفة "فريما" ("الوقت"، باللغة الروسية).

تعدّ قائمة يسرائيل بعلياه سادس أكبر كتلة في الكنيست، بعد العمل والليكود وشاس والمفدال وميرتس، على الترتيب - مع الأخذ في الاعتبار أن المهاجرين الروس لم يستنفدوا كامل طاقتهم الانتخابية في الانتخابات الأخيرة. وهي تعتبر إحدى كتلتي "الوسط" (بالإضافة إلى "الطريق الثالث")، بحسب المصطلحات الإسرائيلية. ويصنّف قادة يسرائيل بعلياه أنفسهم الحزب بأنه "حزب وسط ذو أهداف اجتماعية يسارية وأهداف سياسية وأمنية إلى يمين الوسط. شيء ما بين دان ميريدور وإيهود براك"^(١٩) وهكذا، كان من المتوقع أن يدخل الحزب الائتلاف الحكومي الذي يقوده الفائز بين المرشحين لرئاسة الحكومة، أيّاً يكن. وفعلاً، فإن المفاوضات التي أجراها زعيم الليكود مع قادة يسرائيل بعلياه أسفرت عن التوصل إلى اتفاق ائتلافي بينهما، تضمن نحو ٣٠ بنداً،^(٢٠) تناول معظمها المطالب المعروفة الخاصة بالمهاجرين، وحدد بعضها غنيمة الحزب من الوزارات والمناصب الأخرى.

* * *

إن تأسيس حزب خاص بالمهاجرين الروس قد غدا، منذ فترة، ضرورياً وممكناً: ضرورياً للتعبير عن مصالحهم المتميزة وثقافتهم الخاصة، وممكناً بسبب خبراتهم التنظيمية وقدراتهم السياسية المتراكمة. أمّا فيما يعني المستقبل، فذلك شأن آخر. ■

(١٩) باوم، مصدر سبق ذكره.

(٢٠) للاطلاع على هذا الاتفاق، انظر: "هآرتس"، ١٨/٦/١٩٩٦.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>